



حكايات من زمن المحن



محمد عبدالقادر الشيخ

تقديم:

تحية لك يا من تقرأ هذه السطور ... مع دعائي للمولى عز وجل أن يهبكم الصحة والسعادة والسرور ... قد يبدو لكم فى هذا الكتيبى الذي أضعه بين كريم أيديكم هنات نحوية وإملائية وأدبية فكم العتبى وأرجو شاكراً كريم تسامحكم معها فرسالتي في هذه الحكايات لم يكن أبداً من مقاصدها أبراز مقدراتي اللغوية ولا حتى منهاجي الفكرية فلم أقصد بهذه الحكايات أمتاعاً أدبياً ولا ترفيهاً فكرياً لكم أو لنفسي بل ولم أقصد أبداً بناء أو تبني موقفاً فلسفياً بل جل ما أردته من خلالها أن أنبه الغافلين لحقيقة ما جرى وما يجري منذ منتصف القرن العشرين وحتى هذه اللحظة التي نشهد فيها نهاية وشيكة للربع الأول من القرن الحادي والعشرين مع توضيح وجهة النظر التي يظهرها كل فريق من فرقاء الفرق ، وقد جمعت ذلك من خلال معايشة متجردة لما دار وما يدور حولي من أحداث وما خبرته عن أقوام وأوطان وما أختبرته من معتقدات وطرق تفكير ومدراس تربوية – لا أدعي إلماما بأصول علوم كثيرة بالصورة المتصورة لدى الكثيرين ممن أفاقوا على الدنيا فوجدوا من خطوا لهم مناهج العلم وحددوا لهم أطراً صارت لهم بالمرجعية التي لا يجوز لهم أن يحيدوا عنها قيد أنملة حتي لو تبين هم خطؤها في بعض الأحيان أو رأوا إختلافها الفاضح والواضح مع ما يعيشونه من واقع ووقائع أحياناً أخر .

أخلص قولي بالتأكيد بأن حكاياتي هذه تمثل شهاداتُ شاهدٍ محايد على عصره وقد ألبستها ثوب الحكايات لما عهدته لدى الكثيرين من طباع ميالة للملل من الحديث الصريح والذي حتى لو لم يملوه لما علق بالذهن إلا لفترة إعتدنا جميعا أن تعلقها المواد الدراسية – عدا القصص والشعر ومختصر العبارات – وعادة نسيان ما فاض من الحديث قادت الناس في الماضى ليستنبطوا منها ولها توضيحاً صاغوه في عبارة :" خير الكلام ما قل ودل " فتعاهدت الأمم حِكماً وأقوالاً مأثورة تلخص كثير الشروح في قليل كلمات ، لكن ومن الجانب الآخر فقد لاحظ القدماء أيضا رسوخ الآيات الدينية والشعر والقصة والكثير من الحكايات في ذواكر الشعوب مما حدا بهم لتقصي السبب الذي أدى لرسوخ العديد من الأشعار والقصص والحكايات في ذاكرة الشعوب ، فأتوا بعد دراسة استباطينة لصفات هذه الراسخات إلى حقيقة عمدوا بعدها لتعديل العبارة التي ذكروها سابقا لتصبح:

" خير الكلام ما قل ودل ... وجل ولم يمل "

أسأل الله أن يجعل لهذه الحكايات نصيبا يسيرا من الإمتاع يبعد عنها الكثير من الملل لحين – إذ ليس لي إلا أن اردد ما قد نسب إلى ألبرت أينشتاين من مقوله يقال أنها من أواخر كلماته في نهاية أيام حياته :

" لا أدري ماذا يخبئ المستقبل لنظريتي ، لأن ديناميكية العلم تلغي ثبات أي نظرية علمية"

وحتى لو فسرنا كلمات ألبرت هذي بطرق مختلفة تظل حقيقة التغيير والتجديد والتحوير والتعديل ديدنا ثابتا تفرضه ديناميكية الحياة و يقرره خالقها:

قال تعالى:

وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ هُودٍ

إختص الخالق نفسه ببيان وتوضيح آياته الكونية فقال جل وعلا :

سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ فُصِّلَتۡ

وأختص ربي نفسه حتى ببيان تأويل وتفسير آيات كتابه المنزل الخالد حسب الزمان والمكان والجماعة فقال عز وجل:

ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن...

مع دعائي لي ولكم بالتوفيق...

محمد عبدالقادر الشيخ

السودان – في 1445هـ - 2024م

الجزء الأول

[1.1] حقل التجارب الجديد

جلست الى صديقي الفيلسوف بعد إلقاء التحية وتلقي رده المقتضب على تحيتي ... صمت فاحترمت صمته وجلست صامتا اترقب ...
مضت الدقائق رتيبة بطيئة ... وفجأة رفع رأسه وقال:
(" لماذا يجعلون من البسطاء حقل للتجارب؟")
ولم ينتظر اجابة مني بل واصل:
(" بعد انفجار ثورة البيانات انتقل العالم المسيطر على التقنيات والتكنولوجيا الرقمية إلى ثورة المعلومات وبسرعة كبيرة ازدادات الاجهزة الداعمة للبشر من اجهزة الابصار والسمعيات والاطراف الصناعية ونحو ذلك واستبشر الناس وفرح المرضى بما توافر من اجهزة جعلتهم يتخطون نواقصهم بصورة مقبولة ... ولكن")
صمت صديقي للحظات وكأنه يطلب مني استيعاب ما قاله والاستعداد لما سوف يأتي بعد (لكن) هذه... سمعته يطلق زفرة قبل ان يواصل:
("وانفجرت المعلومات ودخل عالمهم ثورة المعرفة وحتى يتسنى لهم استنهاض البنيان المعرفي تحتم الولوج في تقنيات وتكنولوجيا المؤازرة التي يمكنها أن تزيد من عدد ونوعية المستقبلات و المتحسسات البشرية بحيث يتمكن الفرد مثلا من التقاط أصوات خارج النطاق الموجي للسمع البشري او ان يرى في الظلام الحالك وكانه في النهار او ان يشم الروائح من مسافات بعيد ويميز بينها بكفاءة تفوق مقدرات افضل الكلاب المدربة.")
هب صديقي واقفا بصورة مفاجئة وتحرك من موقعه ليقف إلى جواري مباشرة ثم واصل من بين اسنانه :
(" لقد كانوا يستخدمون فئران التجارب والحيوانات في مراحل الاستكشاف للصناعات الداعمة ولكن ذلك لم يعد كافيا عند الانتقال للاجهزة المؤازرة لم يعد الحيوان مجديا فالمعرفة تحتاج انظمة بيولوحية أكثر تعقيدا من الاجهزة التي تتيحها الفئران وحيوانات التجارب وصار لزاما استخدام الإنسان ولا أقول الإنسان المفرد بل حتى الجماعات البشرية في بيئاتها الطبيعية بعد زرع الشرائح المختلفة في اجسادها !!!")
تنهد صديقي مرة أخرى وقال:
(" بكل اسف تم اختيار الدول الأكثر تخلفا ومواطنيها كمعامل لتجاربهم وصار الكثير منا فئران تجارب !")
رمقني فيلسوفي بنظرة وهو يرفع نظارته عن عينيه وكانه يستكشف مدى تأثير ما قاله ..
واردف:

(" سوف اخبرك عن اسرار بعض ما يحدث في هذا العالم في جلسة قادمة ان شاء الله.")
وقبل أن اعلق بكلمة كان يخطو مبتعدا وفي خطوه غضب وثورة ...

[2.1] **فنجان قهوة**

انتظرت هنيهة وانا اراقب خطوات صديقي الفيلسوف وهو ينصرف مبتعدا ثم استجمعت قواي لانهض من مقعدي وامضي متثاقل الخطو نحو منزلي...
في الطريق إلى المنزل كنت انظر حولي الى المارة وقد اخذت الافكار تتوالى والاسئلة تتعاقب على رأسي ... ترى كم من هؤلاء قد تمكنوا من زرع الشرائح في اجسادهم؟ وكيف تمت زراعة تلك الشرائح؟ وما هي انواعها واغراضها واثرها الايجابي والسلبي؟ اسئلة كثيرة كموج متلاطم...
احسست برغبة جامحة في تناول قدح من القهوه فدلفت مسرعا الى داخل أول مقهى قابلني وجلست متهالكا على الطاولة وطلبت من النادل كأسا من القهوة السوداء...
لم أدر كم مضى من الوقت بين طلبي وحضور الجرسون حاملا القهوة وكاسا من الماء المثلج ليضعهما امامي وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه ... وفجأة وجدتني امسك بمعصمه واركز نظري على عينيه مباشرة فارتسم على وجهه مزيج من الدهشة والغضب فاسرعت بالسؤال:
("هل تم غرز شريحة في جسدك؟") ...
احسست بأن موجة من الغضب والانزعاج قد تملكته وهو يحاول تخليص يده من قبضتي ... فافرجت اصابعي وأنا اتمتم :
("عذرا أنا آسف")
تراجع النادل الشاب للوراء قليلا قبل ان يقول:
(" لا عليك...")
ثم اردف بصوت هامس:
(" لقد قام خواجات بعثة المساعدة الطبية بزرع الشرائح في اجساد جميع السكان في قريتي وقد قالوا إنها تحمي حاملها من الاصابة بفيروس كوفيد19 ")...
انفغر فاهي دون شعور مني وطافت غمامة أمام ناظري...
تناولت كأس الماء وكرعته في جرعة واحدة وقبل ان يستقر فارغا على الطاولة تناولت قدح القهوة بيدي الأخرى لاكرعه دفعة واحدة وأنا اسمع همس الجرسون وهو يقول :
("ما هذا الجنون؟")

[3.1] **تفعيل الشريحة بنجاح**

عدت إلى المنزل وأنا استحث خطواتي مسرعا ومتجنبا النظر في المارة ...
قابلتني صغرى بناتي عند مدخل الباب فرمقتني بنظرة استغراب وصاحت :

("بابا. هل انت مريض؟")
حاولت رسم ابتسامة لاطمئنها ووضعت يدي فوق رأسها وأنا اقول :
(" لا لست مريضا ... أنا بخير والحمد لله")...
قالت :(" اذن لابد ان تكون قد التقيته")
فاسرعت متسائلا:("من تعنين؟")
قالت ببراءة (" ومن يكون غير صديقك الفيلسوف!")
رمقتها بنظرة وانا أتساءل (" وما به؟ ")
قالت (" لا شيء فقط تذكرت حين سألك عن معضلة الغنم ")
حاولت لبرهة أن أتذكر الأمر لكن لم يعد الصبر ينفع فقلت لها بصوت يحمل رنة غضب لم أجد ما يبرره :
(" ذكريني بالموضوع ")
قالت:(" لقد عدت يوما ووجهك يحمل تساؤلات وحيرة كما هو عليه الآن وحين سالتك ما الأمر قلت لي بأن صديقك الفيلسوف قد قال لك بانه قد مر على قطيعين من الغنم فعلق على الأول بعبارة (ما اكثره وما اقله) بينما علق على الثاني بعبارة(ما اقله وما اكثره) وقد اوضح لك تساوي عدد الاغنام في القطيعين وطلب منك تفسير العبارتين ")...
فجأة قفز كل محتوى تلك الليلة لذاكرتي بعد أن ملكتني صغيرتي طرف الخيط ، فاضفت بحماس:
(" تذكرت يومها قلتي لي - أما القطيع الأول فاغلبه من *الذكور* بينما أغلب القطيع الثاني من *الاناث* ")
ثم وجدتني بلا وعي اردف
(" الآن صرنا نحن القطيع ")...
فجأة سرت رعشة في كامل جسدي وكاني قد صعقت بتيار كهربائي وقد تناهى الى سمعي صوت صغيرتي وهي تتساءل
(" هل تم تفعيل شريحتك؟ ")
اسرعت إلى فراشي وأنا ارتعد رعبا ورغم أنني قد احكمت إغلاق عيني الا أنني كنت اتخيل صغيرتي وهي تقف عند طرف السرير وهي تردد:
(" لقد تم تفعيل الشريحة بنجاح ")

[4.1] **الفيلسوف**

مرت أيام انقطع فيها الاتصال والتواصل مع صديقي الفيلسوف وفي ذات الوقت كنت كلما نظرت في عيني صغيرتي تنتابني تلك القشعريرة وتسري برودة في اطرافي...
لم اجرؤ على سؤالها اما من جانبها فقد اكتفت برسم ابتسامة المنتصر على وجهها كلما تلاقت اعيننا...

أيام عصيبة صرت خلالها اتحاشى الناس وانظر اليهم وكانهم قد اتوا من كوكب آخر.....
لم اكن قبل ذلك ممن يصابون بالدهشة حين يقترح عليهم محرك البحث من قوقل مقترحات تظهره وكانه مطلع على ما أفكارهم فقد كنت اعلم بأن ما تتيحه منصة هادووب (Hadoop) من عناقيد قواعد بيانات هيكلية SQL او غير الهيكلية NoSQL تقبع في خليفة قوقل اضافة لخوارزمات تحليل تدفق البيانات وما تتيحه المستشعرات والمعالجات المتطورة ووسائط التخزين الفائقة والنظم الذكية والموزعة التي تستبيح حتى اجهزتنا في الخلفية بعلمنا او بدون علمنا بل وفي كثير من الاحيان قسرا وعنوة (حكم القوي على الضعيف) تجعل مسالة الاقتراح الذي يعطيه محرك البحث مسألة سهلة ميسورة ...
مرت أيام وأنا اتردد على مكان لقائي بصديقي الفيلسوف في اوقات لم اكن التقيه فيها عسى ولعل ... لكنه لم يطل او يظهر له اثر...
رحت اسأل نفسي لماذا لم اطلب منه رقم هاتفه من قبل؟ ولكن هل يمتلك هاتفا ! حقيقة لم يسبق ان شاهدته يستقبل او يجري اتصالا هاتفيا ...
أيام تمر بطيئة والاسئلة تتقافز محملة بالكثير من الملامة : لماذا لم اسأله عن عنوانه؟ لماذا لم اتابعه ولو لمرة واحدة ؟
لماذا طوال السنوات التي عرفته فيها لم يسبق له ان زارني في منزلي رغم دعواتي له ولماذا لم يسبق له ان دلني على كيفية اجاده إذا احتجته...
كان اللقاء الأول بيننا في ذات المقعد المنزوي بالحديقة المجاورة لمكان عملي حيث اعتدت كلما غادرت العمل ان اجلس علي ذلك المقعد اتامل غروب الشمس واستنشق الهواء الرطب المشبع برائحة الورود والطين ..
في اللقاء الأول والذي اتذكره الآن بوضوح كانه حدث منذ دقائق وقف امامي ملقيا التحية واستاذنني بالجلوس إلى جانبي فاذنت له دون ان التفت ناحيته ... وبعد برهة من جلوسه تنحنح وقال لي:
(" عذرا.. هل تشاهد الغروب هنا بانتظام؟ ")
وايضا دون ان اتجه نحوه ببصري اجبت:
(" نعم ... كلما خرجت من العمل جلست في هذا المقعد اراقب غروب الشمس ")
قال: (" وهل تسمح لي بالجلوس احيانا معك؟")...
عندها التفت ناحيته فتفاجات بشاب يصغرني بحوالي العشر سنوات اسمر البشرة تلتمع عيناه من خلف نظارته السميكة وقد تأبط حقيبة جلدية عتيقة...
مددت له يدي وقلت:
(" مرحبا بك في أي وقت .. عموما هي حديقة عامة لا تحتاج أن تستاذنني في الجلوس فيها ")...
مد يده الصغيرة لتضيع بين غليظ اصابعي وقال:
(" شكرا... محسوبك الفيلسوف. ")
وجدتني اضحك رغما عني وأنا اقول:
(" تشرفنا بالفيلسوف.. ") ثم اردفت في شيء من التهكم:

(" ما دمت فيلسوفا فهل اقول اني "موسى" ام اكتفي بأن اقول "باني فتى موسى وتابعه ")...
لم يكترث لتهكمي الواضح لكنني سمعته يقول:
(" فإن صاحبتني فلا تسالني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا ")
لم اعلق لكني التزمت بعدم سؤاله وعاهدت نفسي ان اظهر له صبرا...
تكرر مجلسنا وفي كل جلسة كنت ألمس فيه حكمة ومنطقا وفلسفة لم اجدها لدي "هيغل" ولا "جوته" ولا "ديكارت" او غيرهم من الفلاسفة قدامى او معاصرين ...

[5.1] لسان أفعى

في تلك الامسية وبينما كنت عائدا للمنزل ...إلتقيت صغرى بناتي عند مدخل البيت ... رمقتني بنظرتها التي باتت تؤرقني وابتسامة النصر كما اسميتها تتلالا فوق ثغرها ...
حملقت في وجهها الذي طالما قبلته من قبل ولبرهة تخيل لي انها قد اخرجت لسانا ازرق اللون منشق كلسان افعى من بين شفتين اصطفت خلفهما اسنان كاسنان حيوان مفترس...
استدرت وغفلت راجعا و مسرعا إلى الحديقة التي كنت التقي فيها بذلك الفيلسوف...
لم اجلس على مقعدي المعتاد بل رحت اذرع ممرات الحديقة جيئة وذهابا وقد شبكت يدي خلف ظهري...
تسائلت عما إذا كان من واجبي زيارة طبيب نفسي... والافكار تتزاحم على رأسي...
لم أشعر بالوقت يمر ولا بالظلام يحل حتى رن هاتفي المحمول فاخرجته من جيبي وكانت المكالمة من بنتي الكبري التي ابتدرتني :
(" بابا أين انت انتظرناك على العشاء ولم تحضر والان انتصف الليل ! هل انت بخير ؟ لقد قلقنا عليك") ...
وجدتني أقول بصوت مرتعش :
(" ليس هنالك شيء أنا الآن في طريقي إلى المنزل ") ...
اعدت الهاتف الى جيبي واسرعت الخطى نحو المنزل...
فتحت باب الدار محاولا عدم احداث جلبة او صوت وما ان ولجت الى الداخل حتى تفاجأت بكامل الاسرة جلوسا حول طاولة العشاء...
قلت بصوت حاولت أن يبدو طبيعيا:
(" لماذا لم تتناولوا عشاءكم إلى الان؟ ")
ردت ابنتي الوسطى وهي تغالب التثاؤب :
(" لم يسبق لنا منذ رحيل والدتنا ان ننام قبل ان نتعشى معا ")
سحبت مقعد في مقدمة المائدة وجلست متهالكا...
همست كعادتي :
(" بسم الله المنعم الوهاب ")...
من طرف عيني رمقت صغيرتي ولم تفتني ابتسامة النصر ...

تنحنحت... وازدرت اللقمة بصوت مسموع...
سمعت الصغيرة توجه الي سؤالا :
(" لم يحضر؟ ")
قلت وانا اخفي انفعالي :(" من تقصدين؟ ") فاطلقت ضحكة صغيرة وهي تقول:
(" ومن غيره؟ صديقك الفيلسوف ")
حاولت التصنع بعدم الاكتراث وأنا اسألها:("اتعرفينه؟")
تجرات هذه المرة بالنظر الي عينيها مباشرة ... هزت رأسها فامالته يمنة ويسرى وهي تقول:
(" ليس تماما ")
نهضت واقفا وأنا أقول:
(" استمتعن بعشاءكن فقد اكلت شيئًا قبل العودة ")...
ولم انتظر حتى لسماع تمنياتهن لي بليلة سعيدة...

[6.1] بحر الظلمات

اوصدت باب غرفة نومي واطفأت المصباح فغرقت الغرفة في ظلام دامس...
استلقيت على ظهري في الفراش ورحت ابحلق في السقف دون ان ارى في تلك الظلمة من شيء همست:(ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) تنهدت ودعوت الله ضارعا ان يهديني فقد اضحى كل شيء من حولي ضبابيا ومعتما ومخيفا...
فجأة تناهى إلى سمعي صوت طرق خفيف على باب الغرفة وسمعت صوت صغيرتي وهي تقول:
(" بابا هل يمكنني أن ادخل؟ ")...
رأيتها في خيالي وهي تخرج لسانا ازرق مشقوق كلسان افعى... ارتعدت خوفا وملأت رعبا ...
عاد صوت صغيرتي وهذه المرة قالت وهي كمن يوشك بالبكاء:
(" بابا انني خائفة ")...
قفزت من سريري وقد تلاشت جميع مخاوفي ونسيت ما كان يتملكني من رعب ...
فتحت باب الغرفة وحملت صغيرتي بين ذراعي اضمها إلى صدري ودمعة حارة تتحدر من عيني...
وضعت الصغيرة على فراشي وتمددت إلى جانبها ...
لم استطع حبس الدموع التي ظلت تنهمر مني ولم انبت ببنت شفه...
لم ادر كم مضى من الوقت قبل أن أسمع انتظام صوت انفاسها فعلمت انها قد غطت في النوم ...
ظللت امسح على شعر رأسها ولم يغمض لي جفن حتى سمعت اذان الفجر فنهضت وتوجهت إلى المسجد...

عقب عودتي من الصلاة كان ضوء الفجر قد تسلل إلى غرفتي وصغيرتي ماتزال نائمة...
تذكرت أن اليوم عطلة فتمددت على السرير إلى جوار الصغيرة ولم احول ناظري عن وجهها الملائكي...
فتحت صغيرتي عينيها وابتسمت هذه المرة لم أرى في ابتسامتها هزوا بل غمرتني بفيض من السعادة...
همست بصوتها العذب:
(" احبك بابا... احبك كثيراً ")
مدت يدها الصغيرة نحوي واغمضت عينيها فاحتضنت تلك اليد الناعمة وفجأة احسست وكان شريحة مغطاة تحت ذلك الجلد الرقيق...
وقبل أن استوثق من الأمر سحبت الصغيرة يدها النحيلة وفتحت عينيها وهمست:
(" بابا لا تدعني أنا خائفة جدا ")
وجدتني انسى أمر الشريحة واحتضن صغيرتي وأنا اهمس في اذنها مطمئنا:
(" لن اتركك يا حبيبتي ... لن اتركك أبدا فلا تخافي ")...
لا ادري لماذا تكالبت علي كل جيوش النوم في تلك اللحظة...
وقبل أن اغط في نوم عميق سمعتها تقول:
(" ماما دائما ما ...")

[7.1] **الراحلة المقيمة**

عندما افقت من نومي وجدت صغيرتي ما زالت الي جواري وقد اسندت رأسها الصغير إلى صدري كمن يتسمع لدقات قلبي...
ابتسمت وهبت واقفة وهي تقول:
(" لقد انتظرناك بالافطار ... فلنسرع لأنني اموت جوعا ")
....
عقب الافطار طلبت مني صغيرتي ان احدثها عن امها الراحلة...
تذكرت أنني قبل ان يغلبني النوم سمعت جزء من جملتها التي ذكرت فيها امها...
نظرت طويلا في وجهها ... وبادلتني النظرة وهي تترقب ما سوف احدثها به...
لا ادري لماذا اخترت أن ابدء من تلك الذكرى ... قلت:
(التقيت بامك في الجامعة حين كنت أقوم بالتحضير لنيل درجة الدكتوراة ...
كنت وحيدا وغريبا ... بل كنت كالنقطة الشاذة بلوني الاسمر في تلك المدينة ... ورغم أن الكثير من الاساتذة والدارسين والطلاب كانوا يستغربون لوني ومظهري الا انهم اعتادوه كما اعتدت نظراتهم ولم اعد اكترث لما يبديه الغالبية من عنصرية وازدراء للوني....)
نظرت في عينيها ...
لمست شغفا منها في ان اكمل حديثي... فواصلت:

(" امك رحمها الله كانت عالمة تحمل ارفع الدرجات العلمية في الهندسة الوراثية وترأس قسم الدراسات والبحوث بالجامعة...
كانت تكبرني ببضع سنوات و كانت جميلة مثلك...
جمعت بيننا في أول لقاء لنا مائدة غذاء...
ابتدرتني وهي تجلس إلى جواري قائلة:(مرحبا ... اواااه... لأول مرة في حياتي احس بأنني انثى ...) وضحكنا معا وانا اعقب:(في بلادي في مثل هذا الموقف يجب أن اقول اعطيني عنوان والدك وسوف نحضر أنا واهلي لطلب يدك !!)
فعقبت وهي تبتسم:(هكذا اذن؟)...")
رمقت صغيرتي بنظرة فوجدتها تستمع بكل انتباه...
انطلقت مني زفرة حرى ، فواصلت:
(" تم كل شيء بسرعة ... تزوجنا وسارت حياتنا من سعادة إلى سعادة وتعينت في الجامعة عقب اكمالي للدكتوراة وكثيرا ما كنا نسافر أنا وامك للمشاركة في المؤتمرات العلمية...
رزقنا بشقيقتيك الكبريين وبعدهما كان ميلادك ")
مددت يدي ممسكا فكها السفلي وأنا أقول:
(" آخر العنقود سكر معقود ")
وانحدرت دمعة من عيني وأنا اقول:
(" بعد عيد ميلادك الأول بايام وبينما كنا نتجهز لزيارة الوطن بناء على رغبة امك التي كانت دائمًا ما تطالبني كي اسافر بها لبلادي واعرفها على اهلي ..وكنت اعدها بأن البي رغبتها ولكن وفي كل مرة سرعان ما نغرق كلانا في بحر الابحاث والمؤتمرات العلمية... بيد أننا عزمنا على السفر عقب عيد ميلادك وكما قلت بدأنا بالتجهيزات لذلك...
كانت امك سعيدة بل كنت احسها اكثر شوقا وتوقا للقاء اهلي مني!!! ")
توقفت عن الحديث لبرهة وجذبت صغيرتي وضممتها إلى صدري واضعا كفي على عظمة كتفها وفجأة وكمن لسعته جمرة احسست بشيء كالشريحة مطمور في لوحة كتفها...
في ذات اللحظة قفزت الصغيرة من حضني وكانها قد علمت بما عثرت عليه...
ركضت صغيرتي بصورة مفاجأة الي غرفتها واوصدت الباب من الداخل وحين اقتربت من الغرفة سمعت صوت بكاء مكبوت...

[8.1] الفراق

في ذلك اليوم خرجت من المنزل قبل غروب الشمس وتوجهت إلى مقعدي المعتاد في الحديقة ...
لم اراقب مغيب الشمس كعادتي بل القيت برأسي للخلف واغمضت عيني...
فجأة احسست باقتراب أحدهم مني فاقمت رأسي وفتحت عيني...
نهضت واقفا وصرخت :

(" انت ؟ أين كنت؟ ولماذا غبت عني كل هذه الفترة ؟ ")
كان صديقي الفيلسوف يقف امامي بشحمه ولحمه متأبطا حقيبته الجلدية العتيقة وابتسامة تعلو وجهه...
لأول مرة اراه مبتسما...
قال :(" لقد اكثرت الاسئلة ")
واطرق برهة ثم رفع راسه وقد فارقت الابتسامة وجهه وقال :
(" هذا فراق بيني وبينك سانبئك بما تبغي...")
احسست بغصة في حلقي ولكني لم اجرؤ على الحديث ولا على النظر في وجهه فاطرقت بينما اتخذ هو مجلسه إلى جواري...
قال بعد دقيقة صمت:
(" كنت قد وعدتك بفضح بعض الاسرار ... اعلم يا صديقي أنهم يخططون لابادة السود والعرب والمسلمين واليهود أيضا ")
صمت لبرهة ثم اردف:
(" قد يبدو ذلك غريبا بعض الشئ لكن دعني اشرح لك ... من وجهة نظر عدد من اثرياء العالم وملاك الشركات الكبرى انه يتوجب على *العلم* الآن أن يعطيهم خلودا ونعيما وجنة كجنة الله ويرون ان ذلك لا يتاتى لهم الا من خلال الكشف الكامل لاسرار الخلق والخليقة والتحكم في جينات جميع الكائنات المعروفة بيد أن الجينوم يستعصي عليهم حيث تتداعى نظرية المشابهة والمقاربة وبالاختصار تنهار الدارونية ونظريات التطور والانتخاب وكل ما اعتقدوا انهم على وشك الكشف عن خارطة جينية تجلت حقيقة بعدهم عن ذلك لسبب بسيط هو تفرد الجينوم لكل فرد لا اقول لكل جنس او نوع بل لكل فرد وفي مثل هذه الحالة وبغرض الوصول لنتائج مقبولة نوعا يتحتم اخذ عينات كثيرة بصورة لم يعهدها الاحصائيون من قبل فلزمهم زرع الشرائح في ملايين السود...
اضافة لذلك يجب أن تقلل اعداد البشر ليجد هؤلاء الخالدون مجالا يعيشون فيه وحتى يمكنهم التخلص من ما يسمى من وجهة نظرهم بالقيم الدينية السماوية وجب عليهم التخلص من المسلمين واليهود وكل ما يسمونه بالقادم من الشرق الاوسط اما التخلص من السود فهذا من دواعي العنصرية العرقية والتي لن تقف عند هذا الحد بل في حال نجاح مخططاتهم فسوف يتم القضاء على الجنس الاصفر والذي يشمل جميع الاسيويين... ")
صمت صديقي للحظات ثم اضاف:
(" بدأ التنفيذ الميداني للمشروع منذ عام 1985م حيث تم زرع المئات بل الالاف من الشرائح في اجساد الكثير من السود بعضها بغرض تغيير الخصائص والمواصفات سلبا وايجابا والاخر بغرض اضافة خصائص وصفات مطلوبة والبعض للكشف عن سر الخلود والسعادة ...
ومع كل تلك الانواع من الشرائح تم تزويد من زرعت بهم الشرائح بشفرة الموت للتحكم في قتلهم من على البعد")
اغمضت عيني ...

عندما فتحتهما مرة أخرى لم أجد صديقي الفيلسوف...
لقد مضى دون وداع...
تلفت حولي واذا بي اراه مبتعدا عند مدخل الحديقة والى جواره صغرى بناتي....

الجزء الثاني

[1.2] اجتماع منظمة اكس لاجل مستقبل مشرق [I]

أخذ السيد "بيل" يراقب المناظر المتعاقبة من خلال نافذة السيارة حيث اخذت الأشجار المتراصة على جانبي الطريق تبدو له كالراكضة بسرعة في اتجاه معاكس لاتجاه سير العربة ...
نظر الى ساعة معصمه... لقد تبقت دقائق معدودة للاجتماع وعليه ايجاد اسباب منطقية مقنعة للاجابة على عدد من المسائل التي تشملها الموضوعات المدرجة في اجندة الاجتماع ...
تنهد "بيل" قبل ان يخرج ورقة من جيب جاكيته ...
اخذ يحدق في تلك الورقة ... ثم وجد نفسه يحاول أن يتذكر كم مضى عليه من زمن لم يمسك فيه بقلم وورقة بعد ان صارت شبكته الشخصية الخاصة من الاجهزة الالكترونية تقدم له البديل الوافي والكافي للكثير من الأشياء...
انحرفت السيارة عن طريق المرور السريع لطريق فرعي اودى بها إلى مزرعة مخضرة محاطة بسور من اسلاك الامواس الشائكة ومن خلفه حزام من الاشعة الليزرية ... صف السائق السيارة في الموقف المخصص لسيارة الرئيس وترجل ليفتح الباب للسيد " بيل " الذي قفز بنشاط وسار بسرعة ليعبر بوابة المبنى الذي اتقن بناؤه على طراز العمارة الاندلسية القديمة...
سار "بيل" عبر الردهة وكان أول من قابله اليهودي السيد "لافي" الذي بادر بإلقاء التحية علي "بيل" فرد الأخير بصورة مقتضبة وقطب ما بين حاجبيه مما يوحي باعتباره لهذا اللقاء نذير شؤوم ...
ثم زاد من سرعة مشيته متخطيا مجموعة من الأعضاء العرب دون ان يلتفت ناحيتهم ليصل الى باب القاعة الكبرى وقبل الدخول استوقفه صوت نسائي رنان فالتفت ناحيته فإذا بالسيدة "هيلين" بقوامها الممشوق وقد انسدل شعرها الاشقر على اكتافها و ارتسمت ابتسامة عريضة على ثغرها تتقدم بخطواتها الرشيقة ناحيته... حين وصلت اليه..
همست في أذنه بكلمات فضحكا ضحكة قطعها صوت المذيعة الداخلية وهي ترحب بالحضور وتدعوهم للتوجه للمقصف لتناول وجبة خفيفة قبل بدء الاجتماع
... ولج السيد "بيل" الى داخل المقصف متأبطا ذراع السيدة "هيلين" والقى التحية بطريقته الاستعلائية على الجالسين وهو يوزع الابتسامات صوب بعضهم ويصرفها عن آخرين...
همست "هيلين" :
(" ما دمت تبغضهم لهذه الدرجة فلماذا لا نستقصيهم من المنظمة؟")

تجاهل الاجابة على سؤالها وهو يهمس:
(" أحتاج لرحلة ترفيهية ... أفكر في زيارة جزر المالديف الأسبوع المقبل ... ما رأيك أن تأتي معي؟")
واستطرد دون أن ينتظر ردها:
(" اذن سوف نغادر في يوم الاثنين القادم ... سامر عليك بنفسي لاصطحابك الى المطار")
في تلك اللحظة مرت مجموعة الأعضاء العرب بالقرب من طاولة السيد "بيل" فتسابقوا في إلقاء التحية والسلام عليه وكل يظهر رغبته في أن يجد حظوة لديه بينما راح من جانبه يرد عليهم بضجر لم يحاول اخفاؤه...

[2.2] نبهان وغطفان

أعلنت المذيعة الداخلية عن قرب بدء الاجتماع الخامس والاربعين لمنظمة اكس وطلبت من الجميع التوجه لقاعة الاجتماعات الكبرى...
ظل السيد "بيل" ممسكا بيد السيدة "هيلين" وساحبا اياها الى جانبه ثم اطلق يدها وتوجه صوب مقعد الرئيس ...
اتخذ الجميع مواقعهم واعلنت المذيعة عن بدء الفحص الامني فوضع كل عضو من الأعضاء الاربعين المتواجدين بالقاعة ابهامه في شاشة مسح بصمة الإصبع ثم ركز كل نظره على كاميرا فحص بصمة العين وبعدها تم فحص بصمة الشفاه وبصمة الصوت ...
راقب السيد "بيل" نتائج الفحص الامني للاعضاء ... وبعد برهة اعلنت المذيعة الداخلية عن اكتمال الفحص الامني بنجاح بنسبة 100% ...
عقب ذلك تم عرض عام باستخدام تقنية الهولوغراف للاسقاط ثلاثي الابعاد مبينا مواقف ونتائج المهام التي ما زالت قيد التنفيذ وتلك التي اكتمل تنفيذها خلال الفترة ما بين الاجتماعين 'السابق والحالي'...
بينما تم عرض خاص ومخصص للسيد "بيل" عن الموقف المالي لكل عضو من الأعضاء الاربعين بالمنظمة والذين يحتلون المراكز الأولى بين اثرياء العالم...
حال انتهاء العرض العام افتتح السيد "بيل" النقاش بطرح موضوع البند الأول من الاجندة والخاص بتداعيات الحرب الروسية الاكرانو-امريكية على اقتصاديات المنظمة ...
وقد عقب على الموضوع كل من السيدين "اورستد" و"بلير" ... وبينما ركز السيد "اورستد" على ازمتي القمح والغاز تناول السيد "بلير" موضوع الدمار الذي لحق بالبنية التحتية لجزء من الاراضي الاوربية واقترح السعي لاقناع الطرفين لنقل الصراع العسكري الدائر بينهما الي مناطق وصفها بشبه المدمرة _اصلا_ واضاف :("لماذا لا يتم نقل المواجهة الحربية الي اماكن مثل السودان او اليمن أو أية دولة إفريقية؟ وبحسم نتيجتها يتم حسم الحرب والمعارك دون هدر الموارد والبنيات

التحتية المجهزة وبدون تعرض السكان البيض للاثار السالبة لاستخدام الأسلحة المختلفة وبغض النظر عن انواعها وامكاناتها او حتى اضرارها")
علت الهمهمات بين المجتمعين فقرع "بيل" بالمطرقة التي على طاولته ... تلك المطرقة التي تجعله يبدو كقاضي محكمة أكثر من كونه رئيس اجتماع لمنظمة!
... حين تم الاعلان عن فترة للراحة غادر المجتمعون القاعة..
عندها توجه السيد "لافي" ناحية مجموعة الأعضاء العرب فقال بصيغة الممازح / الجاد :
(" ابناء العم ابن الخادمة ، اليس من العار علينا ان نوافق على تطهير الأرض من دياناتنا واعراقنا لصالح هذا المشروع الجنوني؟")
وحدق في اعينهم التي اتسعت حدقاتها حتى صارت شبيهة باعين المها العربي...
استطرد "لافي" حديثه وبدى مستمتعا باذلال هؤلاء العرب الاثرياء:
(" لا عليكم... ارى الخوف قد تملككم ... هكذا هو حال سلالات العبيد ... لابد انكم الآن تتمنون لو لم تهدي امنا "سارة" جاريتها جدتكم "هاجر" لجدنا "ابراهيم" !!!... لكنني وكوني يهوديا فان ذلك يشعرني بالفخر ويعطيني شجاعة لانتمائي لشعب الله المختار")...
قال ذلك وغادرهم دون ان ينتظر منهم إجابة...
تبادل أفراد المجموعة العربية النظرات في صمت وابتلع كل منهم ريقه مرات متكررة لعل ذلك ينسيه مرارة الاهانة التي تلقاها للتو عبر كلمات ذلك اليهودي المتأنق...
عند عودة المجتمعون للقاعة همس السيد "نبهان" من المجموعة العربية بكلمات في اذن السيد"بيل" والذي اذاع للجميع بانه قد تلقى طلبا عاجلا من السيد "نبهان" لمداخلة من خارج اجندة الاجتماع وانه لاهمية الأمر يعطي السيد"نبهان" فرصة الحديث ...
سمع جميع من بالقاعة تنحنح السيد "نبهان" وصوت ازدراده لريقه مختلطا باصوات تنفسه الذي تسارع كتنفس فرس عاد للتو من سباق قطع خلاله المضمار لآلاف المرات!!!
مرت لحظة صمت والجميع يترقب والسيد "نبهان" عاجز عن الحديث فتضجر السيد "بيل" وقال موجها حديثه لنبهان :("لو لم يكن لديك ما يمكن أن يقال فارجو التراجع عن طلب المداخلة فنحن جميعًا ما عداكم - أعضاء العصبة العربية في هذه المنظمة - ندرك قيمة الزمن بل حتى أننا نختلف عنكم بأن ما كوناه من ثروات لم يتاتي الا بعد جهد جهيد ... حقيقة نحن نختلف عنكم وعند النظر من الجانب الاخر فنحن من يحفر ليستخرج بترولكم ويصدره ويدير اعمالكم ثم يضع لكم نصيبكم من المال في ارصدتكم ويحفظ لكم حساباتكم في البنوك ويجمع لكم الثروات ..")
سمع الجميع "نبهان" وهو يقول بصوت مرتجف:(" نقدر لكم سيدي الرئيس كل ذلك ... لكن ما تعاهدنا عليه في هذه المنظمة قد بات غير ذي معنى لدى بعضهم... فلقد استهجن السيد "لافي" امامي شخصيا وامام اخواني من العرب الرضا بما تعاهدنا عليه من أمر تخليص هذه الأرض من الدين واصحابه واتباعه...")

علت الهمهمات في القاعة وتوجهت الانظار نحو السيد "لافي" واضطر السيد "بيل" لطرق مطرقته عدة مرات لاجل استعادة الهدوء داخل القاعة...
ثم وجه السيد "بيل" سؤالا مباشرا للسيد "لافي" :
(" ما الأمر يا سيد "لافي" هل صحيح ما يوجهه لكم "نبهان" من اتهام ؟")
اتى صوت السيد "لافي" قويا واثقا وهو يوجه حديثه نحو جميع المجتمعين:
(" لا يخفى علي أي منكم ما ظللت اعانيه شخصيا ويعانيه كل من الزملاء من ذوي الاصول العرقية اليهودية من ازدراء واضح وحقد دفين ظل الزملاء من ذوي الاصول العربية في هذه المنظمة يواجهوننا به طوال الفترة الماضية واني هنا لاسال كل منكم فردا فردا:
هل قمنا نحن اليهود المنتمون لهذه المنظمة بتكوين كيانا منفصلا داخلها؟
هل افردنا لانفسنا جسما منعزلا عن البقية؟ ...
هل سبق لاحدكم ان سمعني او سمع احدا من اليهود الاعضاء يخاطب الآخر باللغة العبرية ؟ ...
هل سمعني احدكم او سمع أحدا من اليهود الاعضاء يستشهد بايات من العهد القديم او الكتاب المقدس؟...
لا أعتقد أن باستطاعة احدكم ان يكذبني إذا قلت بأن هذه الشرزمة من العرب سلالة الخادمة قد تعنصروا داخل هذه المنظمة وكثيرا ما نسمعهم يتحدثون لغتهم العربية فيما بينهم ويستشهدون بماثوراتهم الدينية والشعرية...
اسمح لي اخي "بيل" ان ارفض الدفاع عن صدق ايماني بهذه المنظمة واهدافها ومبادئها التي قامت عليها واعذرني من الدفاع بنفسي على هذا الادعاء ودعني اوكل أي من الاخوة الزملاء في ان ينوب بالدفاع عني في مواجهة ما ساقه المدعو "نبهان" ...
وشكرا سيدي الرئيس")
ساد القاعة صمت ... وسرت برودة في جسد السيد "نبهان" الذي تصبب عرقا ...
فرفع السيد"بيل" براسه ثم توجه بسؤال للسيد "غطفان" من المجموعة العربية :("اخبرنا يا سيد "غطفان" بما تعلمه من اتهام الزميل " نبهان" لاخينا "لافي")
لم يفت على "غطفان" ما حمله المقطع (_الزميل_ "نبهان"_ لاخينا_ "لافي" ..) من تحيز واضح جعله يدرك بأن الوقوف إلى جانب "نبهان" يعني اتخاذ الموقف الخاطيء ، ورنت في اذنيه عبارات الرئيس العربي الذي قال بالحرف الواحد بأن مجرد محاولة الوقوف والتصدي للاجتياح الاسرائيلي لقطاع غزة وحتى مجرد استهجانه يعتبر _انتحارا_ فتمتم "غطفان" في سره لاعنا الماركيز غارسيا غابريال الذي ألبس ذلك العربي المدعو "ابراهيم نصار" ثوبا من الاعتداد بالنفس جعله بطلا لرواية (قصة موت معلن) والتي لو لم تنافسها رواية (مائة عام من العزلة) لنفس الكاتب لكانت سببا في ان يمنح الماركيز جائزة نوبل للادب...
انقطع سيل الافكار والمشاهد التي انهمرت على رأس "غطفان" حين انتهره "بيل" قائلا:
(" سيد "غطفان" هلا اتحفتنا بما لديك")

وجد "غطفان" نفسه يقول بصوت متحشرج:
(" سيادة الرئيس ... الاخوة الزملاء... صراحة لا يسعني الا ان استنكر ما ذهب إليه الزميل "نبهان" باتهامه الجائر للاخ "الافي" والذي لم أر او اسمع منه طوال فترة معرفتي به الا كل التزام بمباديء هذه المنظمة ...لا اخفي عنكم أنني وعدد من الزملاء العرب قد عقدنا اتفاقات شراكة وعهدنا الي مؤسسات السيد "الافي" بكثير من الأعمال التي تعود بمنفعتها علينا وعلى منظمتنا") ...

[3.2] رحلة الي الجزر.

أسرعت "هيلين" بالخروج من باب فيلتها الواقعة على هضبة منخفضة العلو والتي يوحي منظر مشاهدتها لكل من يراها بانه يقف على اعتاب معبد هندي عتيق يفوح منه عبق الطيب والبخور ويختلط فيه صفار الزهر باحمرار الورود...
واخذت تقفز برشاقتها المعتادة على عتبات الدرج المؤدي إلى أسفل الهضبة وقد تدلت على كتفها حقيبة صغيرة اشبه بحقيبة طالبة في المرحلة الثانوية...
حين وصولها لاخر الدرج حيث توقفت سيارة السيد "بيل" ترجل السائق ليفتح لها باب السيارة فقفزت إلى جانب السيد "بيل" الذي استقبلها بذراعين مفتوحتين وابتسامة عريضة تدل على ما يغمره من فرح طفولي برؤيتها وحقا فقد كانت "هيلين" ممن تسر لرؤيتهم العين...
ورغم انهما لم يتبادلا حديثا طوال الطريق إلى المطار إلا أن "بيل" قد ظل محتضنا يدها الرقيقة بكلتا يديه...
لم تمض بضع دقائق من بعد نزولها لدرج هضبة فيلتها الا وكانت علي ارتفاع خمسة وثلاثون ألف قدم فوق مستوى سطح البحر على متن الطائرة الخاصة بالسيد"بيل" وهما في طريقهما لجزر المالديف...
في اثناء الرحلة خطر لها أن تسأله لماذا لا يتزوجان فنظرت إليه ثم عدلت عن خاطرها وقررت تأجيل ذلك السؤال لوقت مناسب آخر...
عقب هبوط الطائرة وخروجهما من المطار... التفت السيد "بيل" ناحيتها وهو مبتسم وقال :
(" لقد اعددت لك مفاجأة ... لن نذهب هذه المرة إلى الفيلا ... بل سوف نستاجر غرفة رخيصة في فندق مغمور")
ابتسمت وخطر لها أنه يمزح لكن حين تلفت خلفها ولم تر اثرا للحرس الخاص بكل منهما كما لم تر اية سيارة من سيارات السيد "بيل" اوجست خيفة لكنها وبرباط جاشها المعهودة لم تفقد ابتسامتها الساحرة بل لمعت عيناها بوميض وشعتا متوهجتين ببريق اخاذ وفي ذات اللحظة تراءت لها صورة والدتها وهي تهمس لها في آخر لقاء لهما:
(" حين تلوح اللحظة لفرصة ما حددي بنفسك طبيعة ما تريدين لكن لا تدعي تلك اللحظة تمر فاللحظة تحمل قبولا عاما لكنها لا تحمل تحديدا لأي امر معين ... وبكل اسف فبعضنا يترك تلك اللحظة تمر دون ان يشعر بها وبعضنا الآخر يجعل غيره

من يحدد له الأمر المقبول فيها بغض النظر عن مدى توافقه الشخصي مع ذلك الأمر أما القلة فهم من يحددون الأمر الذي يناسبهم في ساعة القبول تلك حين تلوح"

[4.2] المتوحد

ترجل السيد"بيل" والسيدة "هيلين" من سيارة الاجرة التي اقلتهما من المطار الي الفندق الذي قام باختياره السائق بعد ان طلب منه "بيل" ان ياخذهم الي فندق رخيص...
وحين دلفا إلى بهو الفندق غمرتهما الانوار الملونة التي زين بها البهو فتوجها الي موظف الاستقبال وطلبا غرفة بحمام داخلي...
لم يكن معهما حقائب سوى حقيبتين صغيرتين يحمل كل واحد منهما واحدة على كتفه...
صعدا إلى الغرفة وحين دخلاها تبادلا النظرات ثم ابتسما وفجأة انفجرا بالضحك...
قالت له بصوتها العذب:
(" يا للروعة... كم احبك")
تردد"بيل" لبرهة ثم قال:
(" اتقبلين الزواج مني بشرط؟")
ردت بلهفة:(" اقبلك مهما كان الشرط ")
فجأة انفجر "بيل" باكيا وسط دهشتها الشديدة...
اخذت "هيلين" تمسح على رأسه حينا وتربت على كتفه احيانا اخر... لم يسبق له ان إنهار باكيا ولم يضعف لا امامها ولا امام كائن من كان...
تركته يبكي ما شاء له من بكاء ولم تحاول أكثر من مسح راسه والربت على كتفيه ... وحينما سكت عن البكاء لم تسأله بل قررت ان تنتظر كي يتحدث من تلقاء نفسه...
جلسا مطرقين على حافة السرير في صمت لا يقطعه الا تنهدات يطلقها "بيل" بين الفنية والاخرى...
ثم مسح على عينيه وفركهما بكلتا يديه وابتسم ...
ناولته كأسا من الماء المثلج فارتشف منه رشفة وقال:
(" حبيبتي هيلين")
وحدق في عينيها الجميلتين بينما احست هي بقلبها يكاد يخرج من قفصها الصدري فرغم السنوات التي جمعتهما لم يسبق له قط أن نطق بكلمة حبيبتي...
اغمضت عينيها وتحدرت منها دمعتان - دمعة حارة من عينها اليسرى واخرى باردة من عينها اليمنى (علمت فيما بعد أن احداهما دمعة فرح والاخرى دمعة حزن وعرفت كيف يجتمع الحزن والفرح معا وفي آن واحد لدى الشخص نفسه) ...
قال"بيل":
(" لم يسبق لي أن بكيت منذ وفاة ابي وأنا في الخامسة من العمر...")
تنهد مطلقا زفرة حرى ثم قال:

(" لم يسبق أن اطلعت احدا على سري... لكنني الآن ابوح لك ...
قد لا تصدقين لكنها الحقيقة... ابي كان زنجيا اسود اللون")
قال ذلك وصمت واطرق برأسه فوجدت نفسها تحشر يدها تحت ذقنه لترفع رأسه فتلتقي اعينهما ... كانت كمن يريد ان ينقل رسالة ويصرح بالمؤازرة مهما كان الأمر...
ابتسم وعادت له نبرته الواثقة وراح يحكي لها عن طفولته وخجله كون اباه اسودا رغم أنه كان مثل امه ابيضا كبياض الثلج ... وكيف اثر ذلك على نفسياته فآثر العزلة لدرجة أنه كان يوصف بالمتوحد ورغم كراهيته للون بشرة ابيه وشعوره بالخجل منها ومنه امام رفاقه الا أنه كان في دواخله يحمل له حبا كبيرا... وحين مات ذلك الأب الزنجي ترك له مالا وفيرا كان قد كسبه من ممارسته ومهارته في لعبة كرة السلة...
اخبرها أنه بعد دفن جثمان والده طلب من والدته الانتقال به إلى ولاية أخرى لا يعرفه فيها أحد ، وتحت ضغطه والحاحه رضخت الأم فانتقلا الي ولاية أخرى وقام بحرق كل الصور والصحف والمجلات التي حوت صورة والده الزنجي وراح يعلق على جدر المنزل صورة جده لامه ويحمل تلك الصورة ليعرضها على رفاقه موهما اياهم بانها صورة والده ...
قال بشيء من الاسى:
(" لقد كان ذلك مؤلما لامي وكانت دائما ما تلومني وتذكرني بابي وبحبه لي وباجتهاده في جمع كل تلك الثروة لاجلي ... اذكر انها في احدى المرات قالت لي لقد ضحى ابوك بحياته من اجلك فقد طلب منه الأطباء التوقف عن ممارسة الرياضة لضعف في قلبه لكنه اصر على مواصلة اللعب والتدريب وكان يردد ' من اين يجمع زنجي مثلي مالا ليامن مستقبل ابنه من دون أن يخاطر بحياته؟ '")
صمت "بيل" لبرهة ثم سمعته يغني:
("
فوق الجبة سنجاب ...
وأنا صياد اصطاد...
لكن الصيد على مثلي...
محظور إذ اني عبد")
انتصب "بيل" واقفا مادا ذراعيه وباسطا كفيه امامها فوضعت كلنا يديها على يديه ونهضت واقفة امامه فقال:
(" شرطي للزواج ان لا ننجب ما لم يتحقق شرطان: الأول منهما ان يتمكن أحد فرقنا البحثية من الوصول للجين المسبب للون الأسود والتحكم فيه ... وثانيهما: ان لا يبقى على وجه الأرض من سلالة السود سواي")
غمغمت"هيلين":
(" موافقة حتى لو لم يبق على ظهر الأرض سوانا")

حكايات من زمن المحن

الجزء الثالث

[1.3] اليخت

سار اليخت الفخم متهاديا يعلو وينخفض مع كل موجة من موجات المحيط الممتد على مرمى الافق من جميع الاتجاهات وشمس الغروب تلقي بأشعتها كرماح دقيقة على السحب فتسيل دمائها وتصطبغ السماء باللون الأحمر القاني في بقع منها بينما تكتفي بقع أخرى بالاكتساء بلون خفيف الحمرة فتبدو كعذارى يستحين مما حولهن لكن يأبى احمرار خدودهن الا ان يفضح ما يخفينه من خجل...
القلق يساور القبطان اثر التقاطه عبر الراديو لتحذير من خفر السواحل بدنو عاصفة قد تبلغ قوتها ما لا يطيقه يخته الفاره هذا... فامسك بالدفة وأخذ يجول بنظره في جميع الاتجاهات بعصبية ظاهرة كمن يبحث عن شيء ما بين كل تلك الامواج المتلاطمة ...
فجأة ظهرت سارية غواصة اخذت تعلو لتطفو علي سطح المحيط.
ادار القبطان دفة اليخت موجها اياه نحو تلك الغواصة...
وما هي الا دقائق معدودة حتى ارسى اليخت إلى جانبها...
وبسرعة جرت مبادلة انتقلت فيها سيدة جميلة المحيا رغم تخطيها منتصف العمر فغادرت الغواصة لليخت بعد ان القت التحية على كل من القبطان و زميلها الذي انتقل من اليخت للغواصة كما تم نقل عدة صناديق مختلفة الاحجام والاشكال والمحتويات من اليخت الي الغواصة وبالعكس...
توجه القبطان الى قمرة الركاب باليخت وطلب من تلك السيدة مناديا اياها بلقب "البروف" أن تلتزم الجلوس على مقعدها وعدم الخروج من القمرة لاحتمال نشوب عاصفة قبل الوصول إلى الشاطئ... وعند عودته الي مقدمة اليخت كان يتمتم:
(" ليتها تلتزم بالجلوس ...")
لكن ما أن امسك بالدفة حتى احس بشخص يقف إلى جواره فالتفت فإذا بالبروف واقفة بجنبه وهي ترمي بنظرها نحو الافق !!!

[2.3] الدولفين

ما أن ابتعد اليخت قليلا حتى غاصت الغواصة بركابها في جوف المحيط كحوت ضخم...
على ظهر اليخت كان القبطان اخوف ما يكون بأن تدركه العاصفة وهو لا يزال بعيدا عن الساحل... وكان مما يزيد توتره تلك السيدة الملقبة بالبروف فقد عهدها دائمة الحركة قليلة الاكتراث بما يجري حولها من احداث فقد كانت دائمًا ما تتصرف بطريقة رغم تهذيبها لا تخلو من كثير جنون وغرابة اطوار...

رأينا أنه كان قد طلب منها البقاء بقمرة الركاب وحذرها من العاصفة لكنها سرعان ما لحقت به في مقدمة اليخت ...
كاد أن يصرخ في وجهها لكن شيء ما استوقفه.
خيل إليه أنه راها تخرج لسانا ازرقا مشقوق كلسان افعي وقد اصطفت من خلفه اسنان كاسنان حيوان مفترس... تراجع للوراء قليلا وافلت الدفة فمال اليخت بصورة مفاجئة قاذفا بتلك السيدة بين الامواج ...
صرخ القبطان :
(" يا للهول !!!")
وقبل أن يتمالك نفسه ويحكم امساك الدفة من جديد كان اليخت قد دار حول نفسه عدة مرات ... وكانت السيدة الملقبة بالبروف قد رحلت بعيدا مع الامواج...
أرسل القبطان نداء استغاثة وابلغ عبر جهاز الراديو خفر السواحل وسرعان ما كانت طوافات الانقاذ تضيء البحر بحثا عن المفقودة...
لكن سرعان ما علت الامواج واشتدت الرياح واخذت تزمجر وتزأر كاسد جريح... اتت الاوامر للطوافات بالعودة الي القاعدة ... بينما هطلت الامطار بغزارة مع قاصف من الرعد والبرق يضيء الفضاء...
ظل اليخت اسيرا للامواج والرياح الغاضبة وبحنكة من خبر البحر وخاض المعارك مع عواتي العواصف كان القبطان يغير في خطط القيادة وتوجيه الدفة حسب مقتضيات احوال تلك المعركة بعد أن تخلى عن الاجهزة وراح يستخدم الخبرة والحنكة...
استمرت العاصفة لساعات طوال... وحين هدأت فجأة كما بدأت قاد القبطان اليخت إلى المرفأ...
كان رأس البروف حينما مال اليخت قد ارتطم باحدى الحواف المعدنية لهيكل اليخت مما افقدها الوعي حتي قبل ان تطير الي خارج اليخت و ترتطم بماء البحر...
وحين افاقت وجدت نفسها ممدة على سرير خشبي قصير وقد تحلق حولها عدد من النسوة قصار القامة شبه العاريات اذ لا يستر اجسادهن من اللباس سوى ثوب جعلنه حول اواسطهن...
كانت ملامحهن اسيوية بعيونهن الدقيقة وشعورهن المنسدلة الناعمة واصواتهن الحادة الجرسية...
علا الهرج في المكان وحاولت احدى النساء اجلاس البروف وهي تخاطبها بلغتها التي قدرت البروف بأن تكون لهجة من لهجات اللغة الصينية... وحينما حاولت البروف النهوض اكتشفت انهن قد جردنها من ثيابها ولففن وسطها بثوب من ثيابهن فانزعجت لذلك الأمر لكنها لم تبدي شيئا من انزعاجها لهن لكن احداهن بدت كمن قرأت ذلك الأمر فاشارت عبر كوة صغيرة بالحجرة التي كن بداخلها فرات البروف ملابسها وقد تدلت من حبل لتجفيف الملابس باشعة الشمس...
واصلت تلك المرأة التي قد بدت عليها خيلاء الذكاء بث الطمأنينة في قلب البروف فجلست إلى الأرض واشارت عليها لتتبع ما سوف ترسمه... فرسمت البحر والموج ثم رسمت امرأة واشارت للبروف بما يعني أنك كنت غارقة في البحر ثم رسمت

دولفين ومن ثم شبكت يداها أمام صدرها وشخصت ببصرها للسماء ... فتمتمت البروف بصلاة شكر لله واحست بدمعها ينهمر بغزارة وتذكرت انها لم تشكر الله منذ عهد بعيد....

[3.3] ضحايا البراءة

راحت السيدة الملقبة بالبروف تجيل النظر متفحصةً ما حولها بعين خبير ألمعي ... ثم نظرت لتلك المرأة التي كانت قد تطوعت بإرشادها لملابسها وبيان ما قام به الدلفين من عمل بطولي لإنقاذها من الغرق و أشارت لها أن تجلس بقربها فأبتسمت المرأة ولكنها لم تجلس على السرير الخشبي حيث أشارت البروف بل جلست على الأرض عند قدمي الضيفة فمالت البروف ناحيتها وامسكت بيدها بين يديها وراحت تدقق فيها وكأنها قارئة للكف ! وبعد ذلك أشارت لها كي تفتح فمها ومرة أخرى راحت تدقق في فم وأسنان تلك المرأة ، بعد ذلك تلمست شعرها ثم أشارت لها كي تستلقي على ظهرها فوق السرير بعد أن نهضت عنه لأنها قد استنتجت أن مضيفاتها لا يجلسن على ذات المقعد مع ضيوفهن ... وبالفعل فقد نهضت تلك المرأة وتمددت على السرير الخشبي دون أن تصدر أي صوت أو تبدي أي إعتراض بينما وقف أخواتها مطرقات في صمت واحترام للسيدة البروف.
تفحصت البروف جسد تلك المرأة من جميع جوانبه وكانت مثل طبيب يفحص مريضا تضغط على هذا الموضع أو ذاك والمرأة المسكينة لا تظهر سوى الطاعة والأدب ... حين فرغت البروف من فحصها لتلك المرأة أخذت تتطلع في بقية النسوة الواقفات ثم أشارت لأحداهن كي تقترب وإعادت الفحص والتدقيق معها ثم مع ثالثة ورابعة ولم تقابل من أي من مضيفاتها إلا بكل إحترام وطاعة...
بعد انتصار قبطان اليخت على العاصفة ووصوله إلى الشاطئ قام بكافة الإجراءات اللازمة والتليغ عن الحادث كما اجرى اتصالا هاتفيا بمخدمه وما هي إلا دقائق معدودة حتى دخل عليه في المكتب السيد "بيل" برفقة زوجته السيدة "هيلين" وقد ارتسم على وجهيهما مزيج من القلق والإرتباك...
إبتدر السيد "بيل" القبطان بسيل من الأسئلة التي أجاب عليها القبطان بكل صراحة ووضوح غير أنه أخفى ما ظن أنه قد رآه من لسان أزرق مشقوق وأسنان حيوان مفترس لحظة إفلاته لدفة اليخت وقذف السيدة البروف بين امواج المحيط.
توجه السيد "بيل" باللوم والتعنيف لقائد فرق الإنقاذ الذي أمر الحوامات بالرجوع للقاعدة وطالبه بإخراج جميع طوافاته وسفن الإنقاذ وعدم العودة إلا بالبروف حية كانت أو ميتة.
لم تكن السيدة "هيلين" في دواخلها بالأقل انزعاجا من زوجها لكنها أظهرت رباط جأش وكثيراً ما لطفت من حدة هياج السيد "بيل" لدى محادثته لمن حوله بما كانت توزعه عليهم من ابتسامات تنسي من ينظرها ما أصابه أو لحق به من اهانة أو تشنيع أو غيره مما أقدح السيد "بيل" أثناء ثورته بتوجيهه لهم وفي ذات الوقت كانت تمسح على كف زوجها وتهدهد عليه كما تفعل الأم الحنون لإبنها...

ساعات إنقضت ولم يأتي خبر لا من الطوافات ولا من سفن خفر السواحل ومراكب الإنقاذ... فهمست "هيلين" في أذن "بيل" والذي إرتعش وأخذ يدير رأسه يمنة ويسرى كمن فقد المقدرة على اتخاذ القرار فنهضت وأنهضته وسارا نحو مقصف القاعدة...
حين جلسا على طاولة اختارتها "هيلين" أسرعت النادلة نحوهم لمعرفة ما يطلبونه وهي تمنى نفسها بأن يقال عنها أنها قد خدمت السيد "بيل" أغنى أثرياء العالم!!!
ظلت "هيلين" تمسح على كف زوجها بحنان بالغ ثم قالت:
(" يجب أن نحمد الله فكما قال القبطان أنه حمولة الرحلة لم يفقد منها شيئ وأن السيدة البروف لم تكن تحمل في يدها شيئاً ولم يكن معها أحد بل كانت لوحدها...")
قالت ذلك وصمتت لبرهة كأنها ترجو أن يستعيد زوجها رابطة جأشه ويتخطى هول الصدمة التي حملها نبأ غرق البروف...
بعد هنيهة من الوقت أضافت:
(" سوف يتم العثور عليها حية ... ألا تذكر نجاتها من ذلك الحادث الرهيب الذي أعتقد الجميع أنه قد أودى بحياتها ...")
أفتر ثغر "هيلين" عن إبتسامتها الساحرة فأغمض "بيل" عيناه كمن يخشى أن تجبره تلك الإنتسامة إلى نسيان مصابه.
من الجانب الآخر بعد أن تفحصت البروف أجساد جميع النسوة اللاتي كن معها في الغرفة طلبت من تلك المرأة الذكية والتي باتت تفهم ما تريده هذه الضيفة دون أن تتكلم معها إلا بلغة الإشارة أو العيون أن تحضر لها طفلا أو طفلة ...
وبالفعل أحضروا لها عددا من الفتيات والفتيان الصغار فتفحصتهم ودققت في أجسادهم الواحد تلو الآخر ... وبعد الفحص أرادت أن يستدعوا لها رجالاً لكنها هنا بدت كمن تخطت الحدود المسموح بها ولكنها بطريقة ذكية أعتذرت لهن ففهمن أنها قد ثابت لرشدها ...
أشارت إلى ملابسها فأسرعت إحداهن بجلب الملابس وتبعتها أخري جلبت جهاز الموبايل الخاص بالبروف حاملةً إياه بشئ كثير من الرهبة...
لم تكترث البروف للملابس بل خطفت الموبايل وابتعدت قليلا عن النساء ثم طلبت رقماً وسرعان ما أتاها الرد...
صاح "بيل" إنها تتصل ، وامطرها بسيل من الاسئلة:
(" أهذه أنت؟ ألف حمدا لله على سلامتك؟ من بطن أي حوت تكلميني؟ أرسلي الموقع") وفجأة سكت وراح ينصت وبدت السيدة "هيلين" كطفل يريد أن يطلع على ما يجري وما يدور من حوار بين زوجها والبروف...
أسرع كل من "بيل" و"هيلين" إلى مغادرة المقصف وتوجها إلى مكتب قائد القاعدة الجوية ، كانت "هيلين" متشوقة لمعرفة ما قالته البروف ولم تستطع مقاومة فضولها أكثر فطلبت من "بيل" أن يطلعها على ما سمعه في تلك المحادثة لكن لم يزد أكثر من عبارة أغرقت "هيلين" في بحر الحيرة بصورة لم تعهدها من قبل إذ قال "بيل":
(" إنه سر الجذب ألم تقرأي كتاب السر للكاتبة الاسترالية - روندا بايرن")

طلب السيد "بيل" من قائد القاعدة أن يبلغ الطوافات والسفن بالتوجه إلى الجزيرة التي اعطته إحداثياتها البروف وبعد أن يتم إجلاء البروف في الطوافة الأولى يتم جلب سكان الجزيرة جميعهم وايداعهم بسجن القاعدة لحين ترحيلهم لاماكن وصفها "بيل" بالامنة ، مع التحذير بعدم التعامل المباشر مع أي من السكان حتى يتم التأكد من سلامتهم...
إنشرح وجه "بيل" وتأبط ذراع "هيلين" وقل أن يمضيا التفت للقائد وقال له :
(" شدد على الجنود بعدم التعامل المباشر مع هؤلاء القوم ... اذا احتجتني في شيئ فسوف اكون بالشاطئ لحين وصول البروف")
كانت "هيلين" تتحرق شوقا لإيضاح وكان "بيل" كطفل صغير فرح بهدية جميلة...
بعد أن وصلا إلى ساحل المحيط التفت نحوها واطلق ضحكة ثم قال :
(" كنت متيقنا أن وجهك الصبوح هذا سوف يجعلني أحمل لقباً جديداً وإذا به يجعلني أحمل ألقاباً كثيرة")
ولم يجعلها تنتظر أكثر فقال:
(" لقد باركنا الأله على ما يبدو ، فحسب ما قالت البروف أنها سقطت خارجة اليخت لتحملها الدولفينات لأكثر من الخمسمائة كيلو متراً وتلقيها في جزيرة منسية قدرت أن سكانها يعيشون أعماراً من نيف ألف سنة أو أكثر وأنها سوف تتوصل من خلال تجارب سوف تجريها عليهم من كشف سر الخلود الذي ظلت تتبعه وتفكر فيه حتى تحقق لها بنظرية الجذب الوصول لمبتغاها")
سألت "هيلين" :
(" لماذا إذن لا تكتفي بعينة من هؤلاء الأبرياء وتدع البقية ولو من باب الإمتنان لما قاموا به نحوها")
رد "بيل" وهو يركل مياه المحيط برجله كما يركل الصبية الكرة:
(" كم أنت جميلة ورقيقة يا هيلين !! يجب أن نحتفظ بالجميع لحين الوصول بتجارب البروف لنجاح لا تقل نسبته عن ال 100% ولذا لن نفرط في أي منهم بل سوف ألأمر بجلب حتى رفاة من ماتوا منهم...")
غمغمت "هيلين":
(" لقد بت أخافك يا حبيبي ")
فوقف كمن صعق بذلك وسألها : (" لماذا؟")
فقالت بصوت خفيض: (" قد تأمر البروف يوما بتشريحي للوصول لسر السعادة")
لمعت عيناه بوميض خاطف لم يفت "هيلين" إلتقاطه...

[4.3] الغواصة

كنا قد تركنا الغواصة وهي تغوص في مياه المحيط بعد ان غادرتها السيدة الملقبة بالبروف وصعد إليها العالم الفذ الدكتور "مارتن" وقد كان ذلك قبيل العاصفة ببضع دقائق... وحين ارعدت السماء وابرقت دارت رحى الامواه تحت الموج فشكلت

دوامات شهدنا ولمسنا اثرها في دواران اليخت حول نفسه بعد ان القى بالبروف خارجه ولكن تلك الدوامات التحت موجيه لعبت بالغواصة رغم ضخامتها فاخذت تدحرجها كما يدحرج الصبية الكرة...
حين قذف اليخت بالسيدة الملقبة بالبروف في الماء كان سرب من الدولفينات مارا في تلك اللحظة فتداعت دولفيناته لانقاذ السيدة واخذن ينفذن خطة انقاذ ليهزمن بها العاصفة فشكلن ما يشبه القارب بتلاحم بعضهن ثم حملن البروف فوق هذا القارب العجيب وفي ذات الوقت ظلت البقية تطوف حول هذا القارب للحيلولة دون سقوط المرأة النائمة فوقه والتي لم تيقظها تلك الاصوات التي اخذت الدولفينات في اطلاقها...
حوت اصوات الدولفينات موجات صوتية عالية التردد ادت لتعطل جميع اجهزة الغواصة وما بها من معدات فعم الظلام داخل الغواصة وفقد قائدها وملاحوها السيطرة عليها وعلا صوت القائد امرا الجميع بالتزام امكانهم والتوثق من ربط الاحزمة بعد ان اخفق في تشغيل المحركات الاحتياطية وصار كل ما يرجوه هو عودة الاجهزة للعمل من تلقاء نفسها بيد أن ذلك لم يحدث وظلت الغواصة تتدحرج مع مواصلتها السقوط نحو القاع...
أخذ الدكتور "مارتن" يسترجع العديد من الذكريات وتخيل أنهم صاروا كاتباع القبطان "ايهاب" ذو الساق الخشبية وهو يطارد الحوت الأبيض "موبي ديك" وارتعد لتلك الخاطرة فسفينة ذو الساق الخشبية لم ينجو منها غير الراوي... ولبرهة رأى الدكتور ذلك الهندي الأحمر الذي تنبأ للراوي بنجاته وموت الجميع اثر نداء "ايهاب" لهم بعد موته وهو ما حدث فعلا فعقب انسحاب البحارة من معركة تفوق فيها ذلك الحوت الضخم الذي سحب حبالهم ورماحهم وسحب معه القبطان "إيهاب" الذي استوثق بتلك الحبال إلى أعماق المحيط فاماته غرقا ثم صعد به للسطح فرآه البحارة كمن يلوح بيده وكأنه يستدعيهم فعادوا لنجدته لكن الحوت عاجلهم بتحطيم قواربهم وبعدها كامل سفينتهم قبل أن يمضى حاملا جثة ذو الساق الخشبية !!!
لعن الدكتور حظه فقد كان من المفترض ان تمت المبادلة بينه وبين البروف في الأسبوع القادم لكن تلك السيدة اعلنت عن رغبتها في هذه المبادلة لزعمها بوجوب حضورها احتفال عيد ميلاد صغيرتها... وهمس"مارتن" مخاطبا نفسه ؛" تلك المجنونة ما تفتأ كل ما التقتيها بأن تعيد لي قصة زوجها الزنجي وبناتها الثلاثة... رغم أنني لم أر أي منهم منذ أن التقيتها والى اليوم"...
ثم تنهد بحسرة وأغمض عينيه لكنه عاد ليفتحهما ويحلق في الظلام من حوله فقد خيل له أن الهندي الأحمر يقف عند رأسه لكنه ليس هندي "موبي ديك" بل هندي أحمر كان من أوائل من أجرى عليهم تجارب اختبار السلاح "الروبوتوبيولوجي" والذي استبدلت فيه الميكروبات بروبوتات "نانو/ مايكروية" تقوم بمهاجمة الخلايا وتحطيمها في أماكن متفرقة من الجسد دون أن تتأثر بكرات الدم البيضاء ولا ما ينتجه جهاز المناعة الطبيعية ... ولأول مرة ينتاب دكتور "مارتن" شعور بالأسى لتعاسة المصير الذي لقيه ذلك الهندي فتعجب "مارتن" لوهلة كيف له أن يتأسى على ذلك الهندي الأحمر والذي بفضل عذابه توصل العلم إلى تدقيق في عملية

المكروبات الروبوتيه وهذا مما أعتبره هو ويعتبره معه الكثيرون نوع من التضحية البشرية لأجل العلم والمعرفة ، وتسائل في نفسه أليس من بين شعوب العالم من يقدمون القرابين البشرية سواء لكسب رضا الأله أو تجنب الكوارث التي قد تصيب المجموعة فيكون القربان فداء للكل!!

فجاة ارتطمت الغواصة اما بقاع المحيط او ببعض الشعب المرجانية...

وسكنت حركتا التدحرج والسقوط عقب تلك الصدمة وثبتت الغواصة...

كان القائد أول من تحرك متلمسا طريقه خلال تلك الظلمة حتى وصل إلى مصباحه اليدوي فأضاءه وحين وجه الانوار عبر كوة النجاة الزجاجية أطلق صرخة حانقة وهويقول:

(" تباً لقد طمرنا تماماً تحت جبالٍ من الشعبِ المرجانية")

حكايات من زمن المحن

الجزء الرابع

[1.4] القرية

شارف الليل على الإنقضاء والفجر على الشروق فامتطى ذلك الديك المميز بعرفه الجميل فوق أعلى قمة منزل في تلك القرية ثم بدأ بصياحه المعهود والذي يبدو متشابها في كل يوم إلا أنه في الواقع يختلف بما يخلفه من تعاظم غرور وخيلاء بالنفس لدى ذلك الديك...
أستيقظ السيد "دينق" ولم يفتح جفنيه في تلك العتمة فقد كان يعلم بأن خيوط الضوء ما زالت في الأعلى لم تحنى بهامتها بعد لتنير له المكان كي يرى..
جال في خاطر السيد "دينق" سؤال عن أهمية أن ينحني الضوء ليلثم شعاع النور ثغر مولدته الجديدة والتي رغم عظيم سعادته بمقدمها لهذه الدنيا يخشى عليها من كل ما قد تكابده في مستقبل حياتها ووضع في ذهنه صورة لما أسماه قصة كفاح إمرأة ... لم ينتبه وهو يسبح في بحار خيالاته إلا بصوت السيدة "ميري" زوجته الجميلة الفاتنة وهي تغني لصغارها:
طلع الفجر ...
وصاح الديك : صو صو...
جات القطة ...
قتلها بس بس...
قالت لي نو نو...
إبتسم "دينق" وهب واقفا بكل نشاط وحيوية وتطلع ناحية "ميري" وراح يتأملها ممشوقة القامة متناسقة الأعضاء يشرأب جيدها الطويل نوعاً فيكسبها جمالاً فوق الجمال... بدت كغصن من الأبنوس الأسود واتسعت ابتسامة "دينق" وهو يقول في دواخله حقيقة أنني أراها في ظلام الليل بنور قلبي والذي لولاه لكانت قطعة جميلة من بقع زمكان الظلام.
رغم حالك سوادها إلا أنها تفوق "فينوس" جمالاً كما أن لها إبتسامة ساحرة تورث من يرآها سروراً يحسه حتى قالت إحدى نساء القرية يوماً :
(" إبتسامة "ميري" أنستني يوم رحيل زوجي الحزن حتى كدت اصاحب روحه وهي تصعد للأعلى بقفزي فرحاً حولها")
جهزت السيدة "ميري" الأطفال للذهاب لتلقى العلم لدى حكيم القرية إلتي لم تعرف المدارس المعهودة في الدول المتقدمة بحسب وصف بعضهم ولا حتى المدارس المعهودة في الدول المتخلفة بحسب وصف آخرين...
أدارت السيدة "ميري" نظرها نحو "دينق" وخاطبته بصوتها الذي لا يقل جمالاً عن بقية صفاتها ومواصفاتها فقالت مداعبة:

(" كالعادة يا حبيبي فأنت آخر من يجيب نداء الديك ... أسرع فلقد جهزت لك كوبا من الشاي وغلفت لك إفطارك في قطعة من القماش إلى جواره... أسرع فقد خرج جميع الصيادين ولن تجد لنا ما نأكله إن تأخرت أكثر من هذا ")
لم يجيبها بل لوح لها مبتسما وأرسل لها قبلة عبر الأثير فأحست بأنفاسها تتسارع وكادت أن تطلب منه أن يبقى لكنها تذكرت بأنها اليوم قد طبخت آخر قطعة قديد حفظتها ولم يعد لديهم إدام فتحدرت منها دمعة بدت كلؤلؤة صافية تعكس أشعة بألوان الطيف ...
أخذت "ميري" تتابع بنظراتها زوجها الذي تمشق قوسه وحمل رمحه وهو يسير بطريقته التي يتكفأ فيها إلى الأمام ...
تمتمت ضارعةً لله أن يوفق زوجها وييسر له صيداً يوفر لهم المؤنة في هذا الشتاء فقد قل الصيد وجف الضرع وشارف المخزون من مؤنٍ على النفاد...
كان جميع أهل القرية يقاسون في هذا الشتاء الأمرين فالبرد القارس يعذبهم ونشح الصيد وما نجم عنه من بوادر المجاعة بعد تواكب سنوات من القحط لم تشهد القرية مثلها منذ سنوات...
جلس حكيم القرية وقد تحلق الأطفال حوله وكعادته بدأ برواية من رواياته اليومية وكانت روايته في ذلك اليوم عن النملة وجدها ومثابرتها وعملها الدؤوب طوال فترة حياتها تنظيماً لعيشها وتخزيناً لغذائها واختتم حديثه عن النملة فقال:
(" تذكروا أن النملة لم تخزن ما جمعته إلا بعد تحويله للصورة التي تحفظه فهى تقوم بقسمة كل حبة من الحبوب التي تجمعها قبل أن تخزنها إلى نصفين عدى حبة الكزبرة فإنها تقسمها إلى أربعة أقسام ")
وألتفت الحكيم إلى ناحية الصغير "فرانسيس" أبن السيد "دينق" سائلاً إياه:
(" لماذا قسمت النملة حبة الكزبرة إلى أربعة أقسام من وجهة نظرك ؟")
وقف "فرانسيس" بين يدي معلمه بكل أدب وأحترام وأجاب:
(" أرى أن النملة حين قمست كل حبة من الحبوب إلى نصفين قبل أن تخزنها ما فعلت ذلك إلا لمنع الحبوب من الإنبات وعلى ذلك يكون نصف حبة الكزبرة قابلاً للإنبات لذا قسمت النملة حبة الكزبرة لأربعة أقسام ")

[2.4] الصيد

سار السيد "دينق" وأخذ يغذ الخطى خلف رفاقه الصيادين وهو يترنم بكلمات الشاعر "أليا أبو ماضي":
فوق الجبة سنجابٌ...
وأنا صيادٌ ... أصطادُ...
لكن الصيد على مثلي ... محظورٌ إذ أني عبدُ !
فجأة خطر له أن يفارق الجماعة ويستكشف طريقاً جديداً فأنحرف عن الدرب الذين قد اعتادوا سيره كل يوم وأخذ يسرع حيناً ويهرول أحياناً أخرى وطوال الوقت ينظر

حوله بعيون نسر ويتسمع بمرهف السمع وقد استجمع كل مشاعره وأحاسيسه حتى لكأن روحه كلها قد إنكمشت متجمعة في نقطة واحدة...
هرول وركض ما شاء له وفجأة عن له على الأفق سرب ظباء !!!
توقف وجمد للحظة ... فرك عينيه ... وراح يتقدم بحذر شديد وقد شحذ قوسه ... قدر المسافة وصوب ... لا يجب لسهمه أن يخطأ ... دعا ضارعاً لله أن يوفقه قبل أن ينطلق السهم في سرعة البرق ليصيب قلب أحد الغزلان ... لحسن حظ "دينق" ظل ذلك الريل واقفاً بشجاعة فلم يثر أمر أصطياده ريبة ولا فزعاً بين ظباء القطيع ... وأنطلق سهم ثانٍ تتبعه دعوات صادقات خرجن من شغاف قلب السيد "دينق" وتكررت المعجزة وظل الظبي واقفاً وهكذا قدر لـ "دينق" أصطياد ريمٍ بعدد ما في جعبته من سهام ثم تقدم وألقى برمحه ليصطاد ظبي آخر قبل أن يتنبه القطيع لحقيقة ما يجرى فينطلقوا فارين من موتٍ صامتٍ زوئام...
كان عدد الظباء التي تم أصطيادها عشرة ظباء وما كان بوسع السيد "دينق" وحده حمل كل ذلك إلى القرية لوحده بيد أنه لو ترك شيئاً وراءه فقد تأتي المفترسات والجوارح قبل عودته فلا يجد له أثراً...
كان السيد "دينق" من أولئك الذين يؤمنون بأن البيئة المحيطة دائماً ما تحتوى على كل ما يلزمك لأنجاز ما تسعى إليه إن أنت تفكرت بحكمة وروية فأخذ يجيل ببصره في كل ما حوله وما هي إلا دقائق معدودة حتى كان يجر ورائه زحافة صنعها من بعض غصون وسيقان الشجيرات وفرشها ببعض أوراق الشجر ثم وضع فوقها كل ما قد أصطاده ومضى بكل ذلك نحو القرية وهو يترنم:

من منع الصيد على مثلي...
فأنا أصطاد لأجل أبي ...
ولأجل الجائع في الحقل...
من مكن قوسي في الظبي...
لله الحمد ... له شكري...

[3.4] طائر الشؤوم

في تلك الليلة وبعد أن تقدم ديك القرية ليؤدي طقوسه اليومية من صياح وغرور وغطرسة أجال الديك بناظريه ثم عدل عن ذلك كله وأخذ يعدو بأقصى ما يمكنه من سرعة متوجها إلى خارج القرية...
بكت المولدة الصغيرة في بيت السيد "دينق" وقامت السيدة "ميري" بإيقاظ زوجها وهي تهمس في شيئ من الخوف والحزن:
(" حبيبي أنهض رجاءً ... أنهض أرجوك")
تململ "دينق" وراح يفرك عينيه وقال:
("ماذا هنالك يا حبيبتي ؟")
جلست "ميري" على حافة السرير وأوقدت السراج...

فتح "دينق" أعينه فإذا ببصره وقد وقع على طائرٍ صغيرٍ مكسور الجناح يحاول ويجاهد الطيران غلا يقوى عليه ولا يرتفع عن الأرض...
تذكر "دينق" بانهم في موروثاتهم يعتبرون أمراً كهذا بنذير شؤم فأخذ يربت على كتف زوجته ليهون عليها الأمر وهو يقول:
(" ليس هنالك من مشكلة ... سوف أضمد لهذا المسكين جراحه وما هي إلا أيام ليحلق من جديد في فضاءات الدنا ")
قال ذلك ومد يده يلتقط الطائر ويخاطبه قائلاً :
(" لقد كنت محظوظاً يا عزيزي فلو كنت هنا قبل أيام لكنت وجبة شهية رغم صغر حجمك ... أحمد الله فقد أصطاد "دينق" وحده عشرة ظباء أمنت لكل القرية مؤنتها من اللحم حتى نهاية الشتاء")
واصلت الصغيرة بكاؤها كما ظلت السيدة "ميري" جالسةً على حافة السرير ولم تنجح كل كلمات زوجها وحاني ربته علي كتفها من إعادة الطمأنينة إلى قلبها...
ألتفت "دينق" وقد ساوره الشك بأن هنالك أمر غير ما بدا له من مجرد تشاؤم بطائر فعاد يسأل زوجته بشيئ من القلق:
(" ما الأمر؟ ماذا هنالك يا حبيبتي؟ هل تشكين من شيئ؟")
نظرت "ميري" إليه بعيناها التي غطتهما الدموع وقالت:
(" لقد حلمت ليالي متوالية بهم ... يحضرون إلى القرية ... يقتلون الرجال ")
وأجهشت بالبكاء...
فأخذ يربيت على كتفها بلطف ويقول :
(" إنها مجرد هلوسات يا عزيزتي ... هوني عليك ...")
هزت "ميري" رأسها بعنف وقالت:
(" لا ليست هلوسات ... لم يسبق لي من قبل أن رأيت في منامي شيئاً ولم يتحقق... ليتها تكون هلوسات ... ليت حلمي يخيب هذه المرة...")
قال "دينق" :
(" لماذا يقتلوننا ؟ ماذا فعلنا لهم ؟ هذه أرضنا ورثناه عن أسلافهم لم نبارحها ولم ننازعهم في ما ورثوه من أرض وثروات")
همست "ميري":
(" لقد قلت لهم في تلك الأحلام مثل ما تقول أنت الآن... كانوا دائماً يعيدون نفس العبارة " لماذا تعيشون إذ لا قيمة لحياتكم ؟ نحن نستمتعم بتقتيلكم ولنا أخذ ثروات الأرض التي لم تعرفوا كيف تستغلونها؟ " وكانوا أحياناً يضيفون :" إذا كان الأجداد يبقون على حياتكم لتكونوا لهم عبيداً وتقوموا بخدمتهم فنحن لا نحتاجكم إذ لدينا روبوتات تخدمنا و تفعل لأجلنا أضعاف ما تفعلونه أنتم فلماذا نبقيكم لمشاركتنا في ما كاد ينضب من موارد هذا الكوكب")
فجأة علا صوت أزيز الرصاص وفاحت رائحة البارود مختلطة برائحة الدم...
سقط "فرانسيس" الصغير عند باب غرفة والديه برصاصة أخترقت صدره من الخلف مستقرةً في البطين الأيمن من قلبه ...

شهقت "ميري" وسقطت بينما قفز "دينق" ليحتضن جسد "فرانسيس" لكنه لم ينجح إذ غارت مجموعة من الرصاص المنطلق من بندقية أحد القتلة في مناطق كثيرة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وتناهى لـ" ميري" صوته وهو يقول:

(" لم نطلب منهم شيئا هو لهم ولم نعتدي عليهم فلماذا يتنمرون علينا ويحرموننا حقنا في الحياة ؟")

نتوقف عند هذا الحد وقد تكون لنا عودة في المستقبل.

(محمد عبدالقادر الشيخ)

14-أبريل 2024م.
اليوم الأخير من العام الأول لحرب إبادة الشعب السوداني تحت تأثير نظم التحكم البراسيكولوجي و نظم حروب القرن الحادي والعشرون.
رب أهدي قوم فأكثرهم غافلون.